

قال صلى الله عليه وسلم:

”
قال الله عز وجل: كل عمل ابن آدم له
إلا الصيام؛ فإنه لي وأنا أجزي به ...
”

@AliAchouri

مقدمة:

لقد هبت على القلوب نفحة من نفحات نسيم القرب، سعى سمسار المواقع للمهجورين في الصلح، وصلت البشرة للمنقطعين بالوصل، وللمذنبين بالعفو، والمستوجبين النار بالعتق، فعلى المسلم أن يجعل من نفسه محلًا قابلاً لتنزيل الرحمات والبركات، لأن هذا الشهر شهر فضل عظيم من الله تعالى من جهة، ومن جهة أخرى أن هذا الفضل لا يذهب إلا لأهله.

1- الصائمون هم السائحون

من هم السائحون؟ وما هي سياحتهم؟ هل هم الذين يجوبون الأرض طولاً وعرضًا، ويقضون أوقاتهم هباءً وسدىًّا؛ أو اكتشافاً وتطلعًا؟ كلا والله، لو عرفناهم وعرفنا سياحتهم لتمنينا أن تكون سائحين العام كله. السائحون هم الصائمون، والسائحات هن الصائمات، وسياحة هذه الأمة الصيام، ألم من هذا الحديث تعجبون وتضحكون ولا تبكون؟

يا سائحون: بشرى لكم وفضيلة قول الله عزوجل: {الثَّائِبُونَ الْمَايِدُونَ الْحَامِدُونَ السَّائِحُونَ الرَّأِكِعُونَ السَّاجِدُونَ الْأَمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ وَبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ} [التوبه: 112].

قال ابن جرير: "أما قوله السائحون: هم الصائمون، وقالت عائشة رضي الله عنها: سياحة هذه الأمة الصيام. فأنعم بالصيام سياحة لهذه الأمة ترفع بها الدرجات، وتکفر بها الخطیئات، وتکسر بها الشهوات، ويستجلب بها الخیرات،

ويقرع بها أبواب الجنات.

إن الصوم أمانة فليحفظ أحدكم أمانته وليتق الله في أمانته عنده.

نصوم فإن الصوم من علم التقى* وإن طويل الجوع يوماً سيشبع**

بعض الناس يصومون عن الأكل والشرب والجماع وغيره من المفطرات، ولا يصومون عن أشياء محرمة كالغيبة والنميمة والكذب ونحوها من المخالفات القولية والفعالية، وهذا لا شك أنه انتكاس في مفهوم الصوم، لأن الصوم تربية للصائم، فليس من المعقول أن يربيك الله على الامساك عن بعض المباح، ثم لا تمسك عن المحرمات.

فالصوم إنما هو صوم الجوارح عن الآثام، وصممت اللسان عن فضول الكلام، وغض البصر عن النظر إلى الحرام، وكف الكف عنأخذ الطعام، ومنع الأقدام عن قبيح الإقدام، فكن كما شئت، فإنما تجني ما تغرس، ولا يدرك ألطاف العطايا الربانية إلا من ربى للصوم قلبه وفؤاده.

2- خطر اللسان على الصائم

إن اللسان من نعم الله العظيمة، ولطائف صنعه الغريبة، فهو صغير حجمه، عظيم خطره وجرمه، وإننا ونحن بقصد الحديث عن صوم الجوارح وأخطرها صوم اللسان **عما حرم الله تعالى**، حيث إن صوم اللسان **عما حرم الله عزوجل من الغيبة والنميمة والسخرية والكذب والقذف والبهتان والسب والشتائم** وغير ذلك من آفات اللسان المهلك، إن صوم اللسان عن هذا كله شرط لحصول ثواب الصوم، وأما من أطلق عذبة اللسان، وأهمله مرخي العنان، فإن الشيطان يسلك به طريق الهلاك، ويسوقه إلى جُرُفٍ هارٍ فانهار به في نار جهنم، فلا يكب الناس في النار على وجوههم إلا حسائد ألسنتهم، ولا ينجو الإنسان من شر اللسان إلا إذا قيده بلجام الشرع، فلا يطلقه إلا فيما ينفعه في الدنيا والآخرة، ويكفه عن كل ما يخشى غائه في عاجله وآجله.

وحقا إن العاقل هو من يحافظ على صومه من المعاول الهدامة التي تحاول أن تهدم بنيان صومه، والغبي من يبذل جهدا في تحمله الجوع والعطش والتعب خلال ساعات الصوم الطويلة، ثم يأتي على بنيانه الذي شيده فيهم بمغول الغيبة للناس، فضلا عن الغيبة لمن رفعهم الله تعالى وكرمهم كالعلماء والمجاهدين وأمثالهم، فيكون من الأخسرین أعمالا وهو يظن أنه قد أحسن صنعا، وفي الحقيقة كان من المفلسين يوم القيمة، لأنه لم يحترس من عدوه الذابح له.

قال صلى الله عليه وسلم: **(أتدرون ما المفلس؟ قالوا : المفلسُ فينا من لا درهم له ولا متابَعَ . فقال : إنَّ المفلسَ من أمتَيِّ ، يأتي يوم القيمة بصلة وصيامٍ وزكَاةٍ ، ويأتي قد شتمَ هذا ، وقذفَ هذا ، وأكلَ مالَ هذا ، وسفكَ دمَ هذا ، وضربَ هذا . فَيُعْطَى هذا من حسناتِه وهذا من حسناتِه . فإنْ فَيَبْتَ حسناً ، قبلَ أنْ يَقْضِيَ ما عليه ، أَخْذَ من خطاياه فطُرِحَتْ عليه . ثُمَّ طُرِحَ في النَّارِ [1])**

فيما من أطلق لسانه يفري في أعراض الناس سبأ وشتاماً وقذفاً وافتراءً، اتق الله في نفسك وفي المسلمين، ولا تكن يوم القيمة من المفلسين، لا تذهب تعبك ونصبك في طاعة الله بالغيبة والنميمة، تأتي يوم القيمة فتظن أن لك أعمالاً فإذا هي تذهب لأناس ظلمتهم وشتمتهم وضربتهم، فإياك إياك أخي المسلم، حسناتك لا تعطها لغيرك، وسنياتك غيرك لا تحملها على ظهرك فتطرح في النار.

ورحم الله القائل:

احفظ لسانك واستعد من شره *** إن اللسان هو العدو الذابح
وزن الكلام إذا نطقت بمجلس *** وزنا يلوح به الصواب اللائح
فالصمت من سعد السعود بمطلع *** يحمي الفتي والنطق سبع ذابح

لما سلسل الشيطان في شهر رمضان، وحمدت نيران الشهوات بالصيام، انعزل سلطان الهوى، فلم يبق لل العاصي عذر، فيا

غيموم الغفلة عن القلوب تقشعى، ويا شموس التقوى والإيمان اطلعى، ويا صحائف أعمال الصائمين ارتقعي، ويا قلوب الصائمين أخشى، ويا أقدام المتهجدين اسجدى لربك واركعى، ويا عيون المجتهدين لا تهجعى، ويا ذنوب التائبين لا ترجعى، ويا أرض الهوى ابلغى ماءك ويا سماء النفوس اقلعى، قد مدت في هذه الأيام، موائد الإنعام للصوم، فما منكم إلا من دعي: **{يَا قَوْمَنَا أَجِبُوْا دَاعِيَ اللَّهِ}** [الأحقاف:31].

فطوبى لمن أجاب فربح وأصاب، ووويل لمن لم يلب النداء فطرد عن الباب.

إن هذا الشهر مدرسة ربانية رحمانية تفتح أبوابها كل سنة شهراً كاملاً يتدرّب فيه العباد على طاعة الله عز وجل والإمساك عن معاصيه، فهو شهر الصيام والقيام وتلاوة القرآن والصدقة وال عمرة وسائل الطاعات .

روى البخاري وغيره عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : **(قال الله: كُلُّ عمل ابنِ آدَمَ لِهِ إِلَّا الصِّيَامُ، فَإِنَّهُ لِي وَأَنَا أَجْزِي بِهِ، وَالصِّيَامُ جُنَاحٌ، وَإِذَا كَانَ يَوْمُ صُومٍ أَحْدِكُمْ فَلَا يَرْفُثُ وَلَا يَصْنَبُ، فَإِنْ سَابَهُ أَحَدٌ أَوْ قَاتَلَهُ فَلَيْقُلُّ : إِنِّي أَمْرُوْ صَائِمٌ، وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لَخَلُوفٌ فِي الصَّائِمِ أَطْيَبُ عِنْدَ اللَّهِ مِنْ رِيحِ الْمَسْكِ، لِلصَّائِمِ فَرْحَتَانِ يُفْرَحُهُمَا إِذَا أَفْطَرَ فَرِحَ، وَإِذَا لَقِيَ رَبَّهُ فَرَحَ بِصُومِهِ)** [2]

3- توجيه نبوي حكيم للصائم في رده على من جهل عليه

ما أجمل أن يتأنّب المسلم بآداب الصوم ويتمثل قول الرسول صلى الله عليه وسلم: **(إِذَا كَانَ يَوْمُ صُومٍ أَحْدِكُمْ فَلَا يَرْفُثُ وَلَا يَصْنَبُ، فَإِنْ سَابَهُ أَحَدٌ أَوْ قَاتَلَهُ فَلَيْقُلُّ : إِنِّي أَمْرُوْ صَائِمٌ)** [3]

ما بال بعض الناس إذا صام شتت أعصابه، وطار صوابه، وطفق يرمي بالعبارات الجافية القاسية أهله وأولاده وجيشه، وزملاءه ومعامليه، وربما كان في غير حال الصوم هادئاً وديعاً خلوقاً لطيفاً!!!
ألا ما أروع قول النبي صلى الله عليه وسلم: **(فَلَيْقُلُّ : إِنِّي أَمْرُوْ صَائِمٌ)**، إنه توجيه نبوي كريم، جاء في صورة الأمر المؤكّد، يرشد الصائم إلى التزام منهج الصوم، وخلق الصوم، وما هذه العبارة التي يرشدنا المعصوم إلى فعلها إلا بمثابة صمام الأمان من آفات اللسان وخطر الجوارح، إنها وقاية للصائم تكبح جماح شهوته قوله وعملاً، وما يزال هذا الهدي النبوي المحمدي بالصائم، حتى يجعله عبداً ربانياً، يعيش في ذروة الكمال الإنساني، فهو في ضوء هذا الدستور الحاسم **(إِنِّي أَمْرُوْ صَائِمٌ)** يصبح من عباد الرحمن **{وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هُنَّا وَإِذَا خَاطَبُهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا}** [الفرقان: 63].

ومن الذين قال الله فيهم: **{وَإِذَا سَمِعُوا الْلَّغُوْ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا تَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ}** [القصص: 55]

وإذا كان المسلم مأموراً بترك الشهوات المباحة في نهار الصوم فالشهوات المحرمة من باب أولى.

ولا يتم التقرب إلى الله تعالى بترك الشهوات المباحة في غير حالة الصيام، إلا بعد التقرب إليه بترك ما حرم الله في كل حال، من الكذب والظلم والاعتداء على الناس في دمائهم وأموالهم وأعراضهم، ولهذا قال النبي: **(مَنْ لَمْ يَدْعُ قَوْلَ الزُّورِ، وَالْعَمَلَ بِهِ، فَلَيْسَ لِهِ حَاجَةٌ أَنْ يَدْعُ طَعَامَهُ وَشَرَابَهُ)** [4]

قال بعض السلف: أهون الصيام ترك الشراب والطعام.

وقال جابر: إذا صمت فليصم سمعك وبصرك ولسانك عن الكذب والمحارم، ودع أذى الجار، وليكن عليك سكينة ووقار يوم صومك، ولا تجعل يوم صومك ويوم فطرك سواء.

وكان السلف إذا صاموا جلسوا في المساجد وقالوا: حفظ صومنا ولا نغتاب أحداً.

والصائمون على طبقتين:

أحدهما من ترك طعامه وشرابه وشهوته لله تعالى يرجو عنده عوض ذلك في الجنة، فهذا قد تاجر مع الله وعامله، والله تعالى

لا يضيع أجر من أحسن عملا، ولا يخيب معه من عامله، بل يربح عليه أعظم الربح، فهذا الصائم يعطى في الجنة ما شاء الله من طعام وشراب ونساء، قال الله تعالى: **{كُلُوا وَاشْرِبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَّةِ}** [الحاقة:24].

قال مجاهد وغيره: نزلت في الصائمين .

وفي الصحيحين عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: **(إِنَّ فِي الْجَنَّةِ بَابًا يُقَالُ لَهُ الرَّيَانُ . يَدْخُلُ مِنْهُ الصَّائِمُونَ . لَا يَدْخُلُ مَعَهُمْ غَيْرُهُمْ)** [5] وفي رواية: **(إِنَّمَا دَخَلُوا ، أَغْلَقُ)** وفي رواية: **(مَنْ دَخَلَ شَرَبَ وَمَنْ شَرَبَ لَمْ يَظْمَأْ أَبَدًا)**.

والطبقة الثانية من الصائمين من يصوم في الدنيا عمما سوى الله، فيحفظ الرأس وما وعى، ويحفظ البطن وما حوى، وينظر الموت والبلى، ويريد الآخرة فيتذكر زينة الدنيا، فهذا عيد فطره يوم لقاء ربه وفرحة برؤيته. أهل الخصوص من الصوام صومهم صون اللسان عن البهتان والكذب.

والعارفون وأهل الأنس صومهم صون القلوب عن الأغيار والحب، العارفون لا يسلّهم عن رؤية مولاهم قصر، ولا يرويهم دون مشاهدته نهر، همهمهم أجل من ذلك . من صام عن شهواته في الدنيا أدركها غدا في الجنة، ومن صام عمما سوى الله فعيده يوم لقاءه، **{مَنْ كَانَ يَرْجُو لِقاءَ اللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ اللَّهِ لَآتٍ}** [العنكبوت:5].

وقوله عز وجل في الحديث القدس: **(كُلُّ عَمَلٍ أَبْنَ آدَمَ لَهُ إِلَّا الصِّيَامُ، فَإِنَّهُ لِي وَأَنَا أُجْزِي بِهِ)** [6] معناه أن الأعمال كلها تتضاعف بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف، إلا الصيام فإنه لا ينحصر تضاعيفه في هذا العدد، بل يضاعفه الله عز وجل أضعافا كثيرة، بغير حصر عدد، فإن الصيام من الصبر وقد قال الله تعالى: **{إِنَّمَا يُؤْفَى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ}** [الزمر:10].

وقيل الحكمة في إضافة الصيام إلى الله عز وجل، أن الصيام هو ترك حظوظ النفوس وشهواتها الأصلية التي جابت على الميل إليها، من الطعام والشراب والنكاح، ولا يوجد ذلك في غيره من العبادات.

قال بعض السلف: طوبي لمن ترك شهوة حاضرة لموعد غيب لم يره، وقيل: لأن الصيام سر بين العبد وربه لا يطلع عليه غيره، ولذلك قيل: لا تكتبه الحفظة، والله عز وجل يحب من عباده أن يعاملوه سرا. اللهم اجعلنا من صام وقام رمضان إيماناً واحتساباً، وأعتق رقابنا من النار.

1 - مسلم/2581

2 - البخاري:1904

3 - البخاري/103

4 - البخاري/4/16

5 - البخاري 4/111

6 - صحيح البخاري